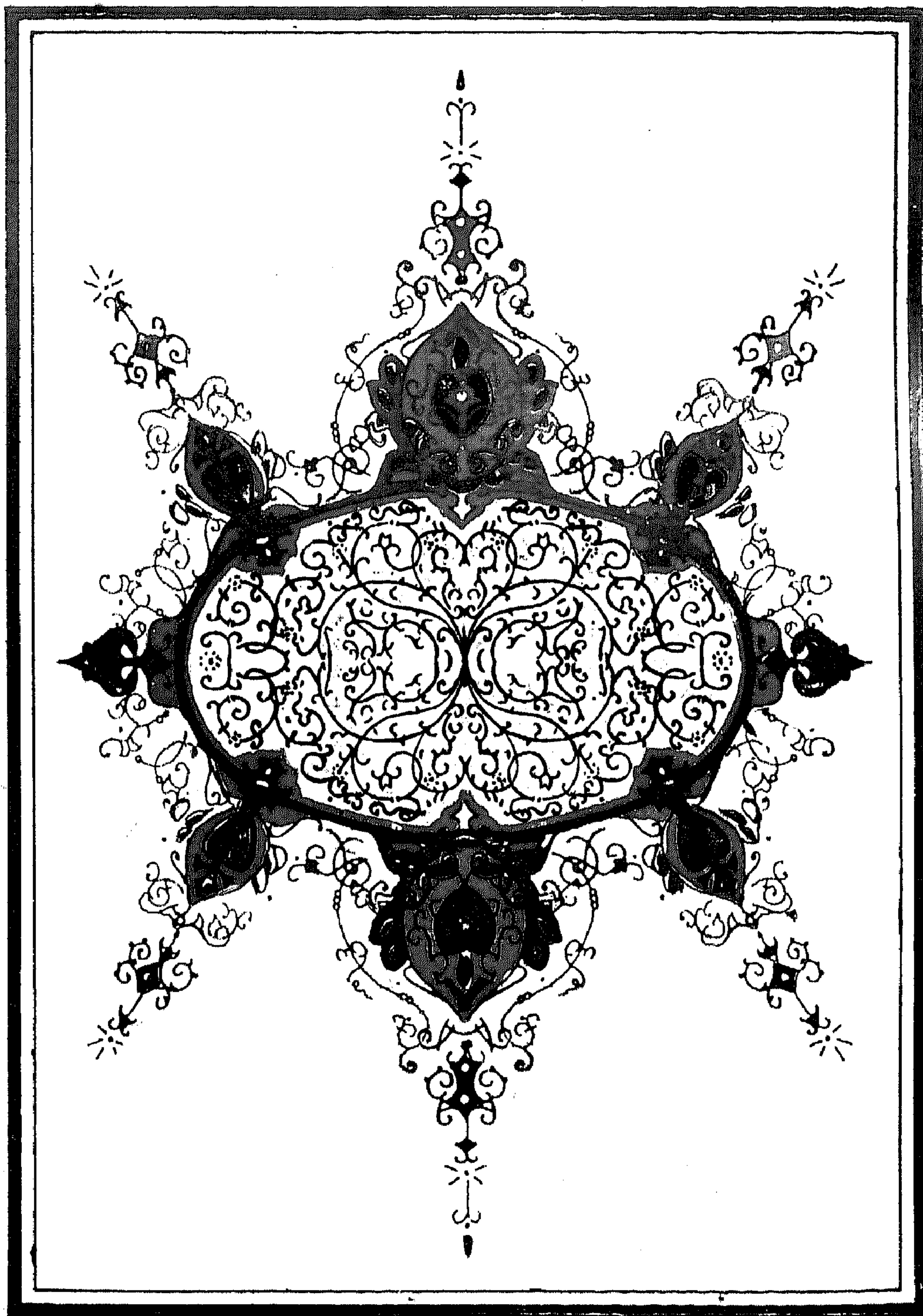


مجلة مجمع اللغة العربية



الجزء الخمسون
حسب
نوفمبر
١٩٨٥ م
١٤٠٣ هـ

أى فى تفسير الشواذ فى لغة العرب

للككتور رمضان عبدالنؤاب

تتطور وتتنغير بفعل الزمن ، فهى عبارة عن سلسلة متلاحقة الحلقات ، يسلم بعضها إلى بعض ، وكل حلقة منها تتكون من مجموعة من الظواهر المطردة القواعد ؛ لأن كل لغة لا بد لها من منطق معين ، حتى تصلح لكى يتفاهم بها أهلها . وهذا المنطق هو ما نطلق عليه اسم : « القواعد المطردة » .

غير أننا نلحظ فى كل حلقة من حلقات التطور اللغوى^(٤) ، أمثلة شاذة^(٥) ، عن تلك القواعد المطردة . ويرجع السبب فى وجودها فى اللغة ، فى غالب الأحيان ، إلى واحد من ثلاثة أمور : فإما أن تكون تلك الشواذ ، بقايا حلقة قديمة ، ماتت واندثرت ،

ما تقابلنا فى كتب النحو

العربى عبارة : « وهى

كثيرا

لغة شاذة^(١) » . وقد اجتهد علماء العرب ، فى تعريف هذا الشاذ ، وحصر أمثله المختلفة^(٢) ، غير أنهم لم يذكروا شيئا عن الأسباب ، التى تؤدى إلى وقوع الأمثلة الشاذة فى لغة من اللغات .

وقبل أن نعرف شيئا عن أهم الأسباب ، التى يحدث من أجلها الشاذ فى اللغة ، نود أن نؤكد هنا شيئا ، فرغ منه المحدثون من علماء اللغات ، منذ فترة طويلة ، وهو أن اللغة كائن حى ؛ لأنها تحيا على ألسنة المتكلمين بها ، وهم من الأحياء^(٣) ؛ وهى لذلك

(١) انظر مثلا : شرح ابن عقيل ١/٧١ ، ١/٧٥ ، ١/٧٩ ، ١/١٢٤ ، ١/١٣٠ ، ١/٢٠٦ ، ١/٢٧١ ، ١/٢٦٦ .
١٢/٢ ، ٣٨/٢ ، ١٨٨/٢ ومعانى القرآن للزجاج ١/٥٥ والعينى على هامش الخزانة ٤/٩٤ والمرتبجل لابن الحشاش ٢٦ وغير ذلك .

(٢) انظر فى ذلك : الخصائص ١/٩٦ ، ١/١١٦ ، ١/٢٦٦ والاقتراح ٢٠ والأشباه والنظائر ١/٢١٤ والمزهر ١/٢٢٦ .

(٣) انظر مثلا : ما كتبه « يسبرسن » . O. Jespersen عن « حياة اللغة » فى مقدمة كتابه : Die Sprache
(٤) التطور اللغوى لا يعنى عند علماء اللغة المحدثين أكثر من التنغير من حالة إلى حالة ، فكلمة التطور ترادف عندهم كلمة التنغير ، ولا تدل على ارتقاء الظاهرة اللغوية بحال من الأحوال .

(٥) المراد بالشذوذ هنا هو عدم الاطراد . ولا يرتبط ذلك عند المحدثين من علماء اللغات بمحسن أو قبيح .

وهو ما نسميه نحن : « الركام اللغوي للظواهر
المندثرة في اللغة » .

وإما أن يكون هذا الشاذ بداية تطور
جديد ، لظاهرة من الظواهر ، تسود حاققة
تالية ، وتقضى على سلفها في الحلقة القديمة .
وإما أن يكون ذلك الشاذ ، شيئا مستعاراً من
نظام لغوي مجاور .

وكل مثال شذ لسبب من الأسباب
الثلاثة السابقة ، على القواعد المطردة في
حلقة من حلقات التطور اللغوي ، إنما كان
مطرداً في بيئته ، ومتوافقاً مع القواعد
السائدة في تلك البيئة ؛ فالركام اللغوي ،
إنما كان أمراً مطرداً في تلك الحلقة ، التي
بادت واندثرت . وبدايات التطور في
ظاهرة من ظواهر اللغة ، نراها سائدة
مطردة بعد ذلك في حلقتها الجديدة ، التي
آلت إليها لغة من اللغات . وكذلك تلك
الأمثلة المستعارة في أية لغة ، من نظام لغوي
مجاور ، هي شاذة هنا ، غير أنها قد تكون
مطردة تمام الاطراد ، في ذلك النظام اللغوي
المجاور .

واصطلاح « الركام اللغوي » اصطلاح
صنعناه نحن ، قياساً على مصطلح « الركام

الحجري » ؛ ذلك المصطلح الجغرافي ،
الذي يعنون به تلك الأحجار ، التي تجرفها
السيول والانهار الثلجية ، من مكان إلى
مكان .

أما نحن فنعني بمصطلحنا : « الركام
اللغوي » بقايا الظواهر اللغوية المندثرة ،
لأننا نعتقد أن الظواهر اللغوية الجديدة ،
لا تمحو الظاهرة القديمة بين يوم وليلة ،
بل تسير معها جنباً إلى جنب مدة من الزمن ،
قد تطول وقد تقصر ، وهي حين تغلب
عليها ، لاتقضى على أفرادها قضاء مبرماً ،
بل يتبقى منها بعض الأمثلة التي تصارع الدهر ،
وتبقى على مر الزمن .

ومن أمثلة ذلك : مراحل تطور الأفعال
المعتلة في اللغة العربية ، وأخواتها اللغات
السامية ؛ فقد تركت بعض هذه المراحل
ركاماً لغوياً في تلك اللغات هنا وهناك .
ونعني بالأفعال المعتلة : ما كان منها (أجوف)
مثل : قال ، وباع ، وخاف ، وطال . أو
(ناقصاً) ؛ مثل : دعا ، وقضى . أو من
نوع (الليف المقرون) ؛ مثل : روى ،
وهوى ؛ فإن كل هذه الأفعال ، وما شابهها
بصورتها التي ذكرناها هنا ، تعد آخر مرحلة
من مراحل تطورها في اللغات السامية .

عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله» (المجادلة ١٩/٥٨) ، و «استنوقَ الحَمَلُ» ، وهو مثل عربي ، يقال إن « طرفة بن العبد » هو أول من قاله ، حين سمع « المتلمس » ينشد شعرا له ، ويقول فيه :
وقد أناسى الهمَّ عند احتضاره

بناج عليه الصَّيْعَرِيَّة مِكَدَمَ

والصيعرية: سمة للذوق ، فجعلها المتلمس للجمل ، وسمعه طرفة ينشد البيت ، فقال :
استنوقَ الحَمَلُ ، فضحك الناس ، وسارت مثلاً (٢).

أما المرحلة الثانية في تطور هذه الأفعال المعتلة ، فهي مرحلة التسكين ، أو ضياع الحركة ، بد الواو والياء للتخفيف ، فيصبح الفعل على نحو: قَبُولَ ، وَبَيْعَ ، وَخَوْفَ ، وَقَضَى ، وَرَمَى . . . إلخ .

وقد فطن العلامة « ابن جنى » بحسه اللغوي ، إلى ضرورة وجود هذه المرحلة ، في طريق تطور الأفعال المعتلة ؛ فقال :
« ومن ذلك قولهم : إن أصل قام : قوم ، فأبدلت الواو ألفا ، وكذلك : باع ، أصله : بَيْعَ ، ثم أبدلت الياء ألفا ، لتحركها وانفتاح ما قبلها . وهو لعمري كذلك ، إلا أنك لم تقلب واحدا من الحرفين إلا بعد أن أسكنته استثقالا لحركته ، فصار إلى : قَوْمَ وَبَيْعَ (٣) » .

أما أولى هذه المراحل ؛ فإنها كانت :
قَبُولَ ، وَبَيْعَ ، وَخَوْفَ ، وَطَوَّلَ ، وَدَعَا ، وَقَضَى ، وَرَوَى ، وَهَوَى ، على نمط الصحيح تماما . وهذه المرحلة بقيت كما هي في الحبشية ، في بعض الأفعال الخوفاء ، وفي كل الأفعال الناقصة ، أو من نوع اللفيف المقرون (١) ؛ مثال الأجوف فيها :

dayana ሳፆፎ « دان » ؛

bayana በፆፎ « تحقق » . ومثال

sakawa ሳጠፐ : الناقص

ramaya ራፐፐፆ « صحا » ؛
« رمى » . ومثال اللفيف المقرون :

dawaya ሳፐፐፆ « مرض » ؛

rawaya ራፐፐፆ « روى » .

وقد بقيت من هذه المرحلة ، عدة أفعال في العربية ؛ مثل : « عَوَرَ » بمعنى : فقد إحدى عينيه ؛ و « حَوَرَ » ، والحَوْرُ : نقاء بياض العين واشتداد سوادها ؛ و « هَيَّيفَ » بمعنى : ضمَّـرَ بطنه ؛ و « استحوذ » في مثل قوله تعالى : « استحوذ

(١) انظر : Dillmann, Grammatik der äthiopischen Sprache, S. 163-165

(٢) انظر : الصناعتين ، لأبي هلال العسكري ٩٢

(٣) الخصائص ٢/٤٧١-٤٧٢ وانظر كذلك : شرح مراح الأرواح ١٢٢

وقد بقيت هذه المرحلة عند قبيلة طيء ؛
فقد روى لنا عنها أنها تقول مثلاً : «حُبَيْبِي»
و «أَفْعَى» و «هُدَى» وماشابه ذلك ، في
الوصل والوقف : (١) وأغلب الظن أن
الراجز الذي قال :

وفرَجٍ مِنْكَ قَرِيبٍ قَدْ أَتَى

وزميله الذي قال :

يَمْنَعُهُنَّ اللَّهُ مِنْ قَدْ طَغَى

إنما كانا من شعراء هذه القبيلة كذلك (٢) .

ولعل هذه الظاهرة كانت شائعة عند
قبيلة « هذيل » كذلك ؛ لأنهم كانوا عندما
يضيفون المقصور إلى ياء التكلم ، في مثل :
« هُدَايَ » و « هَوَايَ » وغيرهما ، يقولون :
هُدَايَ (= هُدَايَ + يَ) ، وهَوَايَ (= هَوَايَ + يَ)
وغير ذلك . وعلى لغتهم جاء
قول أبي ذؤيب الهذلي :

سبقوا هَوَايَ وَأَعْنَقُوا لَهْوَاهُمْ

فَتُخْرِمُوا وَلِكُلِّ جَنْبٍ مَصْرَعٌ (٣)

كما أننا نلاحظ أن تسكين الـرـسـطـلـلـثـخـفـيـف
روى لنا في العربية كثيراً ، وقالوا عنه إنه
« لغة بني بكر بن وائل ، وأناس كثير من
تميم (٤) » كما يروى عن قبيلة ربيعة كذلك (٥)
ومن أمثاله قول القطامي :

إِذَا هَدَّرَتْ شِقَاشِقَةً وَنَشَبَتْ

لَهُ الْأَظْفَارُ تُرِكَ لَهُ الْمُدَارُ (٦)

وقول القطامي كذلك :

أَلَمْ يُخْزِرِ التَّفْرِقُ جُنْدَ كَسْرِي

وَنُفِخُوا فِي مَدَائِنِهِمْ فَطَارُوا (٧)

وقول الأخطل :

وَمَا كَلُّ مَغْبُونٍ وَلَوْ سَأَفَ صَفْقَتُهُ

بِرَاجِعٍ مَاقِدَ فَاتِهِ بِرِدَادٍ (٨)

وقول الأخطل كذلك :

فَإِنْ أَهْجَهُ يَضْجِرُ كَمَا ضَجَرَ بَازِلٌ

مِنَ الْأَدَمِ دَبَّرَتْ صَفْحَتَاهُ وَغَارِبُهُ (٩)

وقول الشاعر :

وَقَالُوا تَرَابِيٌّ فَقُلْتُ صَدَقْتُمْ

أَبِي مِنْ تَرَابٍ خَلَقَهُ اللَّهُ آدَمًا (١٠)

(١) انظر : كتاب سيبويه ٢٨٧/٢ ومعاني القرآن للزجاج ٨٧/١

(٢) انظر : المنصف لابن جني ١٦٠/١ ومعاني القرآن للزجاج ٨٧/١

(٣) شرح ديوان الهذليين ٧/١ وانظر معاني القرآن للزجاج ٨٧/١

(٤) انظر : شرح شواهد الشافية ١٥/٤ (٥) انظر : الصاهل والشاحج ٤٤٠ ، ٤٨٦ ، ٦٦٦

(٦) ديوانه ق ٥٧/٢٩ ص ٨٦ وانظر البيت برواية أخرى في : الصاهل والشاحج ٤٤٠

(٧) شرح شواهد الشافية ١٥/٤ وفي ديوانه ق ٣٩/٢٩ ص ٨٤ : « وأجلوا عن مدائنهم » وفي هامشه
عن إحدى نسخ الديوان الخطية : « ونفخوا » .

(٨) ديوانه ص ١٣٧ وشرح شواهد الشافية ١٨/٤ ورسالة الفران للمعري ٣١٢ والخصائص ٣٣٨/٣
وشرح التصريف الملوكي ٣٢

(٩) ديوانه ص ٢١٧ والكامل للمبرد ١٧٧/٣ والصاهل والشاحج ٤٨٦ وإصلاح المنطق ٣٦ وشرح الملوكي ٣١

(١٠) البيت في أمثال أبي عكرمة ١٢٨ مع مصادر أخرى في هامشه .

وقول الآخر :

فإن النبيذ الصّرد إن شُرِبَ وحده
على غير شيء أحرق الكبد جوعها (١)

وقول أبي خراش الهذلي :

ولحم امرئ لم تطعم الطير مثله
عشية أمسى لا يبين من البكم (٢)

وقول الشاعر :

ألا يا ليتها لُدغَت
وأدعى كَتيمَ ذِي أرقِي (٣)

وقول الآخر :

وأحفظ من أخى ما حفظ منى
ويكفينى البلاء إذا بلوت (٤)

وقول أبي النجم العجلي :

لو عُصِرَ منها البان والمسك انعصر (٥)
وقوله كذلك :

حتى إذا مارضى من كمالها (٦)

وقول الراجز :

رُجِمَ به الشيطانُ في هوائه (٧)

وقول الآخر :

قالت أراه دالفاً قد دُنِّيَ له
ومن أمثال العرب قولهم « لم يُحَرِّم من
فُصِّدَ له (٩) » .

والمرحلة الثالثة في تطور الأفعال المعتلة ،
هى تلك المرحلة التى تسمى فى عرف اللغويين
المحدثين : « انكماش الأصوات المركبة »

Kontraktion der Diphthonge

والأصوات المركبة فى العربية هى : الواو
والياء المسبوقتان بالفتحة ، فى مثل : قول
و « بيت » ، فإن الملاحظ فى تطور اللغات ،
هو انكماش هذه الأصوات ، فتتحول الواو
المفتوح ما قبلها إلى ضمة طويلة مماله ، كقولنا
فى اللهجة المصرية مثلاً : yōm و sōm nōm
بدلاً من : « يَوْمٌ » و « نَوْمٌ » و « صَوْمٌ » ،
وكذلك تنكماش الياء المفتوح ما قبلها ،
فتتحول إلى كسرة طويلة مماله ، كقولنا
فى اللهجة المصرية مثلاً :

bēt و lēl و zēt « بدلاً من : « بَيْتٌ »
و « لَيْلٌ » و « زَيْتٌ » وغير ذلك .

وهذه المرحلة هى الشائعة فى اللغة
الحبشية ، فى الأفعال الخوفاء (١١) ، ففيها

(١) الصاهل والشاحج ٤٤٠

(٢) شرح ديوان الهذليين ٣ / ١٣٤٥ وشرح شواهد الشافية ٤ / ١٨٠

(٣) الصاهل والشاحج ٤٨٦ (٤) ماجوز للشاعر فى الضرورة ، للقرزاز القيرواني ٨٢

(٥) شرح شواهد الشافية ٤ / ١٥ وإصلاح المنطق ٣٦ (٦) الصاهل والشاحج ٦٦٦

(٧) إعراب ثلاثين سورة لابن خالويه ٨

(٨) التمام فى تفسير أشعار هذيل ٢٢٣ واللسان (دنا) ٣٠٠ / ١٨

(٩) انظر : كتاب الأمثال لمورج السدوسي ٥٠ مع مصادر أخرى فى هامشه .

(١٠) انظر : C. Brockelmann, Syrische Grammatik 32 ff.

(١١) انظر : F. Praetorius, Aethiopische Grammatik 79

وهذا التطور الأخير ، هو الذي وصلت إليه العربية ، في مثل : « قام » و « باع » « ونخاف » و « دعا » و « قضى » و « رمى » كما وصلت إليه اللغة العبرية في مثل :

- « وضع » šāt שָׂט
 « ارتفع » nām נָמַם
 « سكن » gār גָּר
 « صنع » āsā אָסָא
 « أجاب » ānā אָנָא
 « جلا » gāb גָּבַח

وإلى مثل ذلك وصلت اللغة الآرامية ، في نحو :

- « قام » kām קָאָם
 « خاط » hāt חָאָת
 « وضع » sām סָאָם
 « رمى » rmā רָמָא
 « بنى » bnā בָּנָא
 « دعا / سمي » krā קָרָא

مثلا : kōma קוֹמָא

« قام » ، šeta שֵׁטָא
 « باع » وغير ذلك . كما توجد هذه المرحلة أيضا ، في اللهجات العربية التي تُسمِل ، في مثل قوله تعالى : « والضحى والليل إذا سجي ما ودعك ربك وما قلى » في قراءة من أمال (١) . وفي ذلك يقول الزجاج : « والإمالة إلى الكسر ، لغة بني تميم وكثير من العرب . ووجهها أنها الأصل في ذوات الياء ، فأميلت لتدل على ذلك (٢) » .

أما المرحلة الرابعة والأخيرة في تطور تلك الأفعال المعتلة ، فتتمثل في التحول من الإمالة إلى الفتح الخالص ، ذلك أن الحركة الممالة الناتجة من انكماش الصوت المركب ، كثيرا ما تتطور في اللغات المختلفة فتتحول إلى فتحة طويلة (٣) ، فمثلا كلمة « فأين » تطورت بعد سقوط الهمز منها إلى « فين » fēn ، بدلا من « فَيَسِن » ، وفي بعض اللهجات : « وين » wēn المتطورة عن : « وَيَسِن » بعد سقوط الهمزة من « وأين » . غير أننا نسمع بعض أهالي مصر العليا ، ينطقون الكلمة الأولى بالفتح الخالص ؛ فيقولون : « فان » بدلا من : « فين » fēn الشائعة فيما عدا ذلك في بلاد مصر ، أي أن التطور في هذا الصوت المركب ، كان على النحو التالي : $\text{ay} \leftarrow \text{ē} \leftarrow \text{ā}$

(١) انظر : التيسير في القراءات السبع ٢٢٣ (٢) معاني القرآن للزجاج ١ / ١٤٤
 (٣) انظر : التطور اللغوي وقوانينه ١٣٥

وقد حدث مثل ذلك في لغة طيء ،
في الأفعال المعتلة المكسورة العين في الماضي
كذلك ، مثل قولهم ، « رَضَا » في :
« رَضِيَ » ، و « فَنَّا » في « فَنَى » و « هُدَا »
في « هُدَى » ، وغير ذلك (١) .

تلك هي مراحل تطور الأفعال المعتلة .
وقد رأينا كيف خلفت تلك المراحل « ركاما
لغويا » في العربية الفصحى ، واللغات
السامية ، واللهجات العربية المختلفة . ومن
كل ذلك نرى أن ما يقوله نحاة العربية ، من
أن (قال) مثلا ، أصلها : (قَوَلَ) صحيح ،
بصرف النظر عن تعليلهم هذا ، بتحريك الواو
وانفتاح ما قبلها ، وإن كان « ابن جنى »
مثلا ، يزعم أن ذلك الأصل لم يوجد
في العربية يوماً ما ؛ إذ عقد في
« الخصائص » بابا سماه : « باب مراتب
الأشياء وتنزيلها تقديرا وحكما لا زمانا
ووقتاً » ، وقال فيه : « هذا الموضع كثير
الإهام لأكثر من يسمعه ، لاحقيقة تحتة ،
وذلك كقولنا : الأصل في قام : قَوْمَ ، وفي
باع : بَيْعَ . . . وفي استقام : استَقْوَمَ .
فهذا يوهم أن هذه الألفاظ ، وما كان نحوها—
مما يُدعى أن له أصلا يخالف ظاهر لفظه—
قد كان مرة يقال ، حتى إنهم كانوا يقولون
في موضع قام زيد : قَوْمَ زيد ، وكذلك :
نَوْمَ جعفر ، وطَوَّلَ محمد . : وليس الأمر
كذلك ، بل بضده ؛ وذلك أنه لم يكن قط

مع اللفظ به ، إلا على ما ثراه وتسمعه . وإنما
معنى قولنا إنه كان أصله كذا : أنه لوجاء
بجىء الصحيح ولم يُعْمَلْ ، لوجب أن يكون
بجئته على ما ذكرنا ؛ فأما أن يكون استعمل
وقتا من الزمان كذلك ، ثم انصرف عنه فيما
بعد إلى هذا اللفظ ، فخطأ لا يعتقده أحد من
أهل النظر (٢) .

ويحاول ابن جنى أن يؤكد فكرته تلك
مرة أخرى ، في كتابه : « سر صناعة
الإعراب » ، غير أنه يعود فيعترف بأن
الظاهرة اللغوية التمدية ، قد تبقى منها أمثلة
تعين على معرفة الأصل ، وهو ما نسميه هنا :
« الركام اللغوي » ، يقول ابن جنى :
« فهنا ونحوه استدلال أهل التصريف ، على
أصول الأشياء المغيرة ، كما استدلوا بقوله
عز اسمه : استحوذ عليهم الشيطان ، على أن
أصل استقام : استَقْوَمَ ، وأصل استباع :
استبَيْعَ ، ولولا ما ظهر من هذا ونحوه ، لما
أقدموا على القضاء بأصول هذه الأشياء ،
ولما جاز ادعواؤهم إياها (٣) » .

وهكذا نرى ابن جنى ، لا يريد أن
يعترف بوجود الأصل القديم « لهذه الظاهرة
في الواقع اللغوي ، غير أنه حين عثر على
مثال من « الركام اللغوي » وهو قوله
تعالى : « استحوذ عليهم الشيطان » ، اضطر
إلى الاعتراف به .

* * *

(١) انظر : كتاب سيويه ٢/٢٩٠ وخزانة الأدب ٤/١٤٩ (٢) الخصائص ١/٢٥٦

(٣) سر صناعة الإعراب ١/١٩٤ كما يقول المبرد في المقتضب ٢/٩٧ : « وقد بجىء في الباب الحرف والحرفان
هل أصولها ، وإن كان الاستعمال على غير ذلك ، ليدل على أصل الباب ، فن ذلك : استحوذ عليهم الشيطان ،
وأغلبت المرأة » .

ومن أمثلة « الركام اللغوي » كذلك ،
 مانعرفه من إلحاق الفعل علامة تثنية أو جمع ،
 في بعض ما روى لنا من أمثلة في العربية ؛
 فن المعروف في العربية الفصحى ، أن
 الفعل يجب إفراده دائماً ، حتى وإن كان
 فاعله مثنى أو مجموعاً ، أى أنه لا تتصل به
 علامة تثنية ولا علامة جمع ، للدلالة على
 تثنية الفاعل أو جمعه ؛ فيقال مثلاً : « قام
 الرجل » و « قام الرجلان » و « قام الرجال »
 بإفراد الفعل : « قام » دائماً ؛ إذ لا يقال في
 الفصحى مثلاً : « قاما الرجلان » ولا
 « قاموا الرجال » .

وعلى هذا النحو ، جاءت جمهرة الحمل
 الفعلية في القرآن الكريم ؛ يقول الله تعالى
 مثلاً : « وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير »
 (آل عمران ٣ / ١٤٦) ولم يقل : قاتلوا
 معه . كما قال جل شأنه : « إذ همّت طائفتان
 منكم أن تفشلا » (آل عمران ٣ / ١٢٢)
 ولم يقل : همّت طائفتان .

تلك هي القاعدة المطردة في العربية
 الفصحى ، شعراً ونثراً . غير أنه قد وردت
 في كتاب الله تعالى بعض آيات ، لحق الفعل
 فيها علامة جمع للفاعل المجموع ؛ كقوله
 تعالى : « ثم عَمِمُوا وَصَمُوا » (المائدة ٥ / ٧١)
 وقوله عز وجل : « وأسروا النجوى الذين
 ظلموا » (الأنبياء ٢١ / ٣) .

وقد أكثر النحويون والمفسرون وعلماء
 اللغة العرب ، القول في تخريج هاتين

الآيتين الكرمتين ؛ فقد قال الإمام القرطبي ،
 في تفسير الآية الأولى مثلاً : « ثم عموا
 وصموا كثير منهم ، أى عَمِيَ كثير منهم وصمَّ ،
 بعد تَبَيَّنَ الحق لهم بمحمد عليه السلام ،
 فارتفع (كثير) على البديل من الواو ، كما
 تقول : رأيت قومك ثلثيهم . وإن شئت
 كان على إضمار مبتدأ ، أى العُمَى والصَّمُّ
 كثير منهم . ويجوز أن يكون على لغة من
 قال : أكلوني البراغيث (١) » .

كما قال في الآية الثانية : « وأسروا
 النجوى الذين ظلموا » ، أى تناجوا فيما
 بينهم بالتكذيب ، ثم بين من هم فقال : الذين
 ظلموا ، أى الذين أشركوا ، فالذين ظلموا
 بدل من الواو في (أسروا) ، وهو عائد
 على (الناس) المتقدم ذكرهم . قال المبرد :
 وهو كقولك : إن الذين في الدار انطلقوا
 بنو عبد الله ، فبنو بدل من الواو في :
 انطلقوا . وقيل : هو رفع على الذم ، أى
 هم الذين ظلموا . وقيل : على حذف القول ،
 أى يقول الذين ظلموا . وقول رابع :
 أن يكون منصوباً بمعنى : أعنى الذين ظلموا .
 وأجاز الفراء أن يكون خفضاً بمعنى اقتراب
 للناس الذين ظلموا حسابهم ، فهذه خمسة
 أقوال . وأجاز الأخنفس الرفع على لغة من
 قال : أكلوني البراغيث ، وهو حسن .
 وقال الكسائي : فيه تقديم وتأخير ، ومجازه :
 والذين ظلموا أسروا النجوى (٢) » .

(١) تفسير القرطبي ٦ / ٢٤٨

(٢) تفسير القرطبي ١١ / ٢٦٨ وانظر : معاني القرآن للفراء ١ / ٣١٦

(٣)

lō yākōmū

ršā'īm bammišpāt

وترجمته الحرفية : « لا يقومون [الأشرار بالعدل] » :

ومثل ذلك في الآرامية في مثل :

וְלִפְתָּא לְחַמְּוֹ

אִשְׁתָּא כְּאִתְּלַבְיָא

āalmā ngōrōn

(٤)

hrāne battāk

وترجمته الحرفية : « لئلا يزنوا الآخرون بامرأتك » :

وكذلك الحال في الحبشية في نحو :

ወሐረ : አሽዛብ

(٥)

wahōrū 'ahzāb

تلك هي آراء المفسرين والنحاة واللغويين العرب ، في هذه الظاهرة ، وهم فيها مقلدون لكل الأوجه الممكنة في العربية ، من التخريج والتأويل . غير أن مقارنة اللغات السامية أخوات العربية ، تؤدي إلى معرفة أن الأصل في تلك اللغات ، أن يلحق الفعل علامة التثنية والجمع للفاعل المثني والمجموع ، كما تلحقه علامة التأنيث عندما يكون الفاعل مؤنثا سواء بسواء (١) .

ففي اللغة العبرية مثلا :

וְיִצְחָק בְּיָמָיו

וְיִצְחָק בְּיָמָיו

وقراءته :

(٢)

wayyāmōtū gam šnēheim

mahlōn' wkilyōn

وترجمته الحرفية : « فماتا كلاهما محلون وكليون » . ومثل ذلك أيضا فيها :

לֵאמֹר וְיִצְחָק בְּיָמָיו

וְיִצְחָק בְּיָמָיו

(١) هذا على العكس مما يراه بروكلمان (Grundriss II 173) من أن ظواهر المطابقة تختلف في كل لغة من اللغات السامية ، كاختلاف نظام الجملة فيها ، وأنا لا نستطيع إرجاع إحدى استعمالاتها في هذين الأمرين إلى السامية الأم .

(٢) سفر روث ١/٥

(٣) سفر المزامير ١/٥

(٤) أحيقار حكيم من الشرق الأدنى القديم ١/٣٣

(٥) انظر : F, Praetorius, Aethiopische Grammatik, Chrestomathia 41

وترجمته الحرفية: « فعادوا الشعوب »^(١) :
ومثل ذلك أيضا فيها :

ወሰንዘኑ = ወሰንዘኑ

wabazhū welūdōmū

وترجمته الحرفية : « وكثروا أطفالم » :

وقد تخلصت العربية الفصحى ، من هذه الظاهرة رويداً رويداً ، غير أن بقاياها ظلت حية عند بعض القبائل العربية القديمة ، كما بقيت بعض أمثلتها في الفصحى ، وهو مانسميه هنا « الركام اللغوى » . وتعرف هذه الظاهرة عند النحاة العرب ؛ بلغة « أكلوني البراغيث » ، وقد عرفت عندهم بهذا الاسم ؛ لأن سيبويه هو أول من مثل لها في كتابه ، واختار هذا المثال ؛ فقال : « في قول من قال : أكلوني البراغيث^(٢) » كما قال في موضع آخر : « ومن قال : أكلوني البراغيث ، قلت على حد قوله : مررت برجل أعورين أبواه^(٣) » : وإن كان قد ضرب لهذه الظاهرة أمثلة أخرى في كتابه ، فقال : « واعلم أن من العرب من يقول : ضربوني قومك وضرباني أخواك ، فشبهوا

هذه بالتاء ، التي يظهرونها في : قالت فلانة ، فكأنهم أرادوا أن يجعلوا للجمع علامة ، كما جعلوا للمؤنث علامة ، وهي قليلة^(٤) » .

وقد حكيت هذه اللغة عن قبيلة « بلحارث ابن كعب » كما حكاهما أهل البصرة عن قبيلة « طيء » . وبعض النحاة يحكيها عن قبيلة « أزد شنوءة^(٥) » . وقد بقيت هذه الظاهرة شائعة في كثير من اللهجات العربية الحديثة ؛ كقولنا مثلا في لغة الخطاب في مصر : « ظلموني الناس » و « لاموني العواذل » و « زارونا الجيران » وغير ذلك . كما بقيت بعض أمثلتها في القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، واحتفظ بهم الكثير من أبيات الشعر العربي القديم :

أما القرآن الكريم ، فقد سبق الحديث عما فيه من أمثلة هذه الظاهرة . ومما جاء في الحديث الشريف قوله صلى الله عليه وسلم « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار^(٦) » بدلا من : تتعاقب فيكم ملائكة ، وإن كان بعض العلماء يرى في هذا الحديث أنه مختصر من حديث طويل ، وأن الواو فيه ضمير يعود على اسم ظاهر متقدم ، وليس

(١) انظر : F, Praetorius, Aathiopische Grammatik, Chrestomattia 42

(٢) كتاب سيبويه ٥/١

(٣) كتاب سيبويه ٥/١

(٤) انظر : الجنى الدانى للمرادى ١٧١

(٥) كتاب سيبويه ٢٣٦/١

(٦) انظر : معنى اللبيب ٣٦٥/٢ والقاموس المحيط (الواو) ٤/١٣٤ وبصائر ذوى التمييز ١٤٦/٥

علامة جمع ، وأن أصل الحديث : « إن لله ملائكة يتعاقبون فيكم ، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار »^(١). وقد وردت هذه الظاهرة في بعض أحاديث الصحابة والتابعين. كما في قول الحسن البصري ، يصف طالب العلم : « قد أوكدتاه يداه ، وأعمدتاه رجلاه »^(٢).

أما أبيات الشعر القديم ، التي وردت فيها هذه الظاهرة ، فما أكثرها في دواوين الشعر العربي . ومن أمثلة ذلك قول عمرو بن ملقط الطائي ، وهو شاعر جاهلي :

ألفيتا عيناك عند القفا
أولى فأولى لك ذا واقية^(٣)

بدلا من : ألفيت عيناك . ومثله قول أمية بن أبي الصلت .

يلومونني في اشتراء النخيل
أهلي فكلهم يعزل^(٤)

بدلا من : يلومني أهلي : وكذلك قول أبي عبد الرحمن العتبي :

رأين الغواني الشيب لاح بعارضي
فأعرصن عني بالحدود النواضر^(٥)
أى : رأيت الغواني . كما يقول الفرزدق :
ولكن ديبافيني أبوه وأمه
بحورآن يعصرن السليط أقاربه^(٦)
أى : يعصر أقاربه . ويقول عبيد الله بن قيس الرقيات :

تولى قتال المارقين بنفسه
وتد أسلماه مبعده وحيم^(٧)

أى : أسلمه مبعده وحيم . ويقول كذلك :
فإن نفنن لا يبقوا أولئك بعدنا
لدى حرمة في المسلمين حريم^(٨)

أى : لا يبقى أولئك : وكذلك يقول عروة بن الورد :

دعيني للغنى أسعى فإني
رأيت الناس شرهم الفقير
وأبعدهم وأهونهم عليهم
وإن كانا له نسب وخير^(٩)

- (١) انظر : شرح الأشموني على الألفية ٤٨/٢
(٢) انظر : الفائق للزنجشيري ٧٣/٣ والنهاية لابن الأثير ٢٩٧/٣ ولسان العرب (عمد) ٢٩٦/٤ وانظر أحاديث أخرى في إعراب الحديث للعكبري ٢٨ ، ٣٩
(٣) شرح شواهد المغنى ١١٣ وأمالى ابن الشجري ١٣٢/١ وشرح ديوان أبي تمام ١٠/٣
(٤) ديوانه ص ١٦ والدرر اللوامع ١٤٢/١ وأمالى ابن الشجري ١٣٣/١ وشرح التصريح ٢٧٦/١ وهمع الهوامع ١٦٠/١ وإعراب الحديث للعكبري ٤٠ وفي شرح شواهد المغنى ٢٦٥ : « عزاه السخاوي في المفصل إلى أحيحة بن الجلاح » .
(٥) العيني على هامش الخزانة ٢٧٣/٢
(٦) ديوانه ص ٥٠ وكتاب سيبويه ٢٣٦/١ وأمالى ابن الشجري ١٣٣/١ وشرح ديوان أبي تمام ٢٢٤/١ وإعراب الحديث للعكبري ٢٩ ، ٤٠ وشرح ابن يعيش ٨٩/٣ وهمع الهوامع ١٦٠/١
(٧) ديوانه ق ٣٥ / ٢ ص ١٩٦ وأمالى ابن الشجري ١٣١/١ وشرح التصريح ٢٧٧/١ وهمع الهوامع ١٦٠/١
(٨) ديوانه ق ٣٥ / ٨ ص ١٩٧
(٩) ديوانه ص ٩١ وشرح التصريح ٢٧٧/١

أى : كان له نسب وخير : ومثله قول
مجنون ليلى :

ولو أحدقوا بى الإنس والجن كلهم
لكى ممنعوني أن أجيئك لحيت^(١)
أى : ولو أحدق الإنس والجن . ومثله
قول الشاعر :

نصروك قومي فاعتزت بنصرهم
ولو أنهم خذلوك كنت ذليلاً^(٢)
أى : نصرك قومي . ومثله أيضاً قول
الآخر :

نُسيًا حاتم وأوس لون فا
ضت عطاياك يا بن عبد العزيز^(٣)
أى : نسي حاتم وأوس .

وغير ذلك كثير في الشعر العربي القديم :
وقد استمرت هذه الظاهرة في أشعار الموالدين
من الطائيين وغيرهم ؛ فهذا هو أبو تمام الطائي ،
يمتلئ ديوان شعره بالأبيات التي جاءت على
هذه اللغة ، مثل قوله :

شجى في الحشى ترداده ليس يفتر
به صُمنَ آمالي وإني لمفطر
وقد قال عنه أبو العلاء المعري في هذا
الموضع^(٤) : « يبين في كلام الطائي أنه كان
يختار إظهار علامة الجمع في الفعل ، مثل

قوله : صمن آمالي ، ولو قال : صام آمالي ،
لاستقام الوزن . وقد جاء بمثل ذلك في غير
هذا الموضع » :

وقد جاءت بعض أمثلة هذه الظاهرة في
شعر المتنبي ؛ فمن ذلك قوله :

ورمى وما رمته يدها فصابتني
سهم يعذب والسهم تريح^(٥)

ويبدو أن هذه الظاهرة كانت شائعة في
عصر الحريري (المتوفى سنة ٥١٦ هـ) الذي
عدّها من اللحن^(٦) ، ورد عليه الشهاب
الخفاجي فقال : « وليس الأمر كما ذكره ؛
فإن هذه لغة قوم من العرب ، يجعلون الألف
والواو حرفي علامة للتثنية والجمع ، والاسم
الظاهر فاعلاً . وتعرف بين النحاة بلغة
أكلوني البراغيث ؛ لأنه مثلها الذي اشتهرت
به ، وهي لغة طيء ، كما قاله الزمخشري :
وقد وقع منها في الآيات ، والأحاديث ،
وكلام الفصحاء ، مالا يحصى »^(٧) .

* * *

ومن « الركام اللغوي » كذلك : مجيء
ما تصرف من « أفعلّ » بالهمزة ، في مثل
قول ليلى الأخييلية :

تدلّت على حصّ ظمء كأنها
كرات غلام في كساء مؤرنب^(٨)

(١) ديوانه ق ٥٨ / ٤ ص ٧٤

(٢) شواهد التوضيح لابن مالك ١٩٢

(٣) شرح الديوان للخطيب التبريزي ٢١٤/٢

(٤) ديوانه ص ١٦٥ وأمال ابن الشجري ١٣٣/١

(٥) شرح درة الفواص للخفاجي ١٥٢

(٦) شواهد التوضيح لابن مالك ١٩٢

(٧) درة الفواص ٦٥

(٨) ديوانها ق ٢١/٤ ص ٥٦ والمنصف ١٩٢/١

الركام اللغوى ، فيما روى لنا عن أبي خيرة الأعرابي ، أنه قال : «استأصل الله عير قاتتهم»^(٥) وفيما رواه الكوفيون عن بعض العرب من قولهم : سمعت لغاتهم ، وقول الرياشي : سمعت بعض العرب يقول : أخذت إراتهم^(٦)

* * *

ولعل من هنا «الركام اللغوى» كذلك ، ما وصل إلينا من نصب الجزأين بعد «ليت» ، في مثل قول عبد الله بن مسلم الهذلي : لكنه شاقه أن قيل ذا رجب^(٧) ياليت عدة دهرى كله رجباً^(٧)

وقول العجاج :

ياليت أيام الصبا رواجعاً^(٨)

وقول الشاعر :

ألا ياليتي حَجْرًا بوادٍ

أقام وليت أمي لم تلدني^(٩)

ومن ذلك أيضاً قولهم في الأمثال : «ليت القيسي كلها أرجلاً»^(١٠) : ويقال إن

وقول الراجز :

وصاليات ككما يؤثقتين^(١).

وقول الآخر :

فإنه أهل لأن يؤكرم^(٢) :

وقد تخلصت العربية الفصحى من الهمز ، في هذه الأمثلة وما شابهها ، بسبب ما يسمى «كراهة توالي الأمثال في أبنية العربية» . وتتحقق هذه الكراهة في الأصل في المضارع المسند إلى ضمير المتكلم ، إذا الأصل فيه : «أؤكرم» فصار بعد حذف أحد المقطعين المتماثلين : «أكيرم» ثم حملت باقى صيغ المضارعة والتصارييف الأخرى على هذه الصيغة ، طرداً للباب على وتيرة واحدة^(٣). ومع ذلك بقيت من «الركام اللغوى» هذه الظاهرة ، تلك الأمثلة السابقة .

وإذا كانت العربية الفصحى ، قد آثرت تطبيق نظرية «المخالفة النوعية بين الحركات» في جمع المؤنث السالم ، الذى ينصب بالكسرة بدلا من الفتحة^(٤) ، فإن الأصل وهو النصب بالفتحة ، قد بقى لنا فى شىء من

(١) المنصف لابن جنى ١٩٢/١

(٢) الإنصاف ٧ ، ٤٨ ، ٤٦١ ، والمنصف ٣٧/١ ، ١٩٢/١

(٣) انظر مقالتنا : كراهة توالي الأمثال فى أبنية العربية ٢١/١٩

(٤) انظر : فقه اللغات السامية ٧٨ (الفقرة ١٤١) .

(٥) انظر : الخصائص ٣٨٤/١ ، ٣٠٤/٣

(٦) انظر : منهج السالك لأبى حيان ١١

(٧) مجالس ثعلب ٤٠٧/٢ وانظر شرح أشعار الهذليين ٩١٠/٢ والتمام لابن جنى ١٦٨

(٨) ماحق ديوانه ق ١/٣٣ عن ٨٢ وطبقات فحول الشعراء ٧٨/١ ولم ينسب فى كتاب سيبويه ٢٨٤/١

وخزانة الأدب ٢٩٠/٤ والتمام لابن جنى ١٦٨

(٩) همع الهوامع ١٣٤/١ والدرر اللوامع ١١٢/١ (١٠) مجمع الأمثال للميداني ٩٠/٢ والمستقصى ٣٠٢/٢

نصب « ليت » للجزأين لغة لبني تميم^(١) .
ويقول ابن سلام : « وهى لغة لهم . سمعت
أبا عون الحرمازى يقول : ليت أباك منطلقاً ،
وليت زيدا قاعداً »^(٢) .

ولعل السرّ في نصب الجزأين على هذا
النحو ، أن « ليت » أصلها : « رأيت »^(٣) ؛
بدليل بقاء هذا الأصل ، بعد تخفيف الهمز ،
فى اللهجات العامية ؛ إذ يقال فى مصر مثلاً :
« يا ريتنى غنى ! » . وقد قلبت رؤها لاماً
منذ زمن بعيد فى الفصحى ، وحمل التنى
فى معناها ، على الترجى فى « لعل » ، فعدلت
عملها . ومع ذلك بقى لنا الأصل فى هذا
« الركام اللغوى » الذى رأيناه فى الشواهد
السابقة . وقد قاس القراء والكسائى على تلك
الشواهد ، بناء على مذهبهما فى توسيع
دائرة القياس اللغوى^(٤) .

وهناك أمثلة أخرى لهذه النظرية - نظرية
الركام اللغوى - فى العربية ، يضيق المقام
عن ذكرها ، وكلها تبرهن بما لا يدع مجالاً
للشك ، على أن الظاهرة اللغوية عندما تتطور
لا تموت أو تندثر تماماً ، وإنما تبقى منها بقايا
تدل عليها ، وفى ذلك يقول العالم اللغوى
فندريس : « التغير لا يكون تاماً إطلاقاً ،
فكثيراً ما تبقى الصيغ القديمة ، إلى جانب
الصيغ المستحدثة ، حتى لتلاحظ فى النظام

العام للغات التى لها تاريخ طويل ، والتى عانت
تطوراً ضخماً ، كالفرنسية أو الإنجليزية ،
مزيجاً من النظم التى تضم حالات مختلفة»^(٥)

* * *

أما السبب الثانى من أسباب الشذوذ فى
اللغة ، وهو ما سميناه من قبل : « بدايات
التطور » لظاهرة من الظواهر اللغوية ،
فإن خير أمثله ما نراه فى العربية الفصحى ،
فى صيغتي : « تفعلّ » و « تفاعل » ،
إذ رويت لنا فيهما صورة أخرى هى :
« اتفعلّ » و « اتفاعل » .

والصورة الأولى لهاتين الصيغتين أقدم
من الثانية ، وعليها جمهرة الأفعال التى
رويت لنا فى الفصحى ، مثل : تعلم ، وتكلم
وتقاتل ، وتضارب ، ومنها فى القرآن الكريم
قوله تعالى : « ثم دنا فتدلى » (النجم ٥٣/٨)
وقوله جل شأنه : « إن الذين اتقوا إذا مسهم
طائف من الشيطان تذكروا ، فإذا هم
مبصرون » (الأعراف ٧/٢٠١) وقوله
عز وجل : « فن تصدق به فهو كفارة
له » (المائدة ٥/٤٥) وقوله سبحانه وتعالى :
« ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم »
(البقرة ٢/١٥٨) وقوله جل وعلا :
« قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله » .
(النمل ٢٧/٤٩) :

(٢) طبقات فحول الشعراء ٧٨/١

(١) انظر : خزائن الأدب ٢٩١/٤

(٣) انظر : C. Brockelmann, Grundriss I 137; II 30.

(٥) اللغة لفندريس ٤٢٣

(٤) انظر : شرح المفصل لابن يعيش ٨٤/٨

كما روى لنا من الصورة الثانية ، بعض الأمثلة في العربية الفصحى ، ومنها في القرآن الكريم قوله تعالى : « حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازيَّنت » (يونس ١٠/٢٤) وقوله عز وجل : « لا يستمعون إلى الملاء الأعلى ويذفون من كل جانب » (الصفوات ٨/٣٧) وقوله سبحانه وتعالى : « لولا أخرجني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين » (المنافقون ١٠/٦٣) وقوله جل شأنه : « بل ادرك علمهم في الآخرة » (النمل ٦٦/٢٧) .

وهذا التطور حدث أولاً في مضارع صيغتي : « تفعلّل » و « تفاعلّل » ؛ إذ تتأثر التاء فيهما - بعد تسكينها للتخفيف - بفجاء الفعل ، إذا كانت صوتاً من أصوات الصغير كالسين والشين ، أو الأصوات الأسنانية ، كالدال والتاء ، فتقلب صوتاً من جنس هذه الأصوات ، ثم قيست على ذلك صيغة الفعل الماضي ، فالفعل : « اذكّر » مثلاً ، مقيس على : « يذكّر » . وأصله - كما قلنا : « يتذكّر » بتسكين التاء للتخفيف من : « يتذكّر » .

ولقد كانت هذه الظاهرة في سبيل التطور في العربية الفصحى ، عندما جاء الإسلام ؛ ولذلك نجد أمثلتها في القرآن الكريم ، جنباً إلى جنب في بعض الأحيان ، مع الصيغ القديمة التي لم يحدث فيها تطور . ونحن نعد هذا دليلاً على أن التطور اللغوي ،

في أية ظاهرة لغوية ، لا يحدث فجأة ، فيقضى بين يوم وإية على كل أثر القديم .

ففي القرآن الكريم أمثلة كثيرة للصورتين الحديثة والقديمة ، في سياق لغوي متشابه إلى حد كبير ، مما يؤدي ما نذهب إليه من أن معناهما واحد ، وأن إحدى الصورتين أصل للأخرى ، ومثال ذلك قوله تعالى : « والله يحب المطهرين » (التوبة ١٠٨/٩) إلى جانب قوله في آية أخرى : « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » (البقرة ٢/٢٢٢) كما يقول الله عز وجل : « قالوا اطيرنا بك وبمن معك » (النمل ٤٧/٢٧) إلى جانب قوله في آية أخرى : « قالوا إنا تطيرنا بكم لأن لم تنتهوا لرجدناكم » (يس ١٨/٣٦) يقول سبحانه وتعالى : « أفلم يدبّروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين » (المؤمنون ٢٣/٦٨) إلى جانب قوله في موضع آخر : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » (محمد ٤٧/٢٤) . ومثله قوله جل شأنه : « وما يذكّر إلا أولو الألباب » (البقرة ٢/٢٦٩) إلى جانب قوله في آية أخرى : « إنما يتذكّر أولو الألباب » (الرعد ١٣/١٩)

بل إن الآية الواحدة لتحتوي في بعض الأحيان ، على الصورتين معاً ، كقوله تعالى : « ليدبّروا آياته وليتذكّر أولو الألباب » (ص ٢٩/٣٨) .

وقد ظل هذا التطور سائراً في طريقه في لهجات الخطاب ، حتى ساد وحده ، وقضى

على الظاهرة القديمة ؛ ففي اللهجة العامية المصرية ، نقول مثلاً : فلان اصداّعت دماغه واسترّع في كلامه . ولا أثر للصيغة القديمة في لهجات الخطاب ؛ إذ لا يقال فيها مثلاً : فلان نصداّعت دماغه ، وتسرّع في كلامه .

وكذلك الحال في صيغة : « تفاعل » ؛ إذ ماتت كذلك ، وحلت محلها صيغة « اتفاعل » التي شاهدنا مولدها في عصر نزول القرآن الكريم ؛ إذ نقول الآن في لهجات الخطاب : فلان اشّاتم مع فلان ، واصّالخوا سراً ؛ بدلا من : تشاتم ، وتصالخوا .

بل لقد سادت صيغتنا : اتفعل ، واتفاعل ، في اللهجة العامية المصرية ، حتى ولو لم يكن في الأصل صوت من أصوات الصغير ، أو الأصوات الأسنانية ، كتولنا مثلاً في لهجة الخطاب : « اتفرّج » و « اتبهل » وغير ذلك .

* * *

ومن أمثلة بدايات التطور في الظواهر اللغوية في العربية الفصحى كذلك ، ما حدث في صيغة : « انفعّل » ، منذ عصور العربية الأولى ؛ فقد كانت هذه الصيغة موضوعاً للدلالة على مطاوعة الفعل الثلاثي ، أي قبول أثر هذا الفعل ؛ مثل : « كسرت الإناء فانكسر » و « فتحت الباب فانفتح »^(١) .

ولما كان فاعل هذا الفعل المطاوع ، ضميراً يعود على مفعول الفعل السابق ، أصبح النحل المطاوع ، شبيهاً في المعنى ، للمبني للمجهول ، في نحو قولك : « كَسِرَ الإناء » و « فَتُحِثَّ الباب » ؛ إذ لا يذكر مع المبني للمجهول غالباً ، إلا ما هو مفعول به في المعنى وأصبح من الممكن أن يتوب هذا المطاوع مناب المبني للمجهول .

وقد بدأت هذه الظاهرة في التطور ، في عصر نزول القرآن الكريم ، ولذلك نجد الفعل المطاوع وارداً في النص القرآني ، في سياق الأفعال المبنية للمجهول في بعض الأحيان ، كما في قوله تعالى : « إذا السماء انفطرت ، وإذا الكواكب انتثرت ، وإذا البحار فجرت ، وإذا القبور بعثرت ، علمت نفس ما قدمت وأخرت » (الانفطار ٨٢ / ٥) وقوله سبحانه وتعالى : « إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت ، وإذا الجبال سُيِّرَت ، وإذا العشار عطّلت » (التكوير ٨١ / ١ - ٤) وقوله عز وجل : « إذا السماء انشقت ، وأذنت لربها وحقت » (الانشقاق ١ / ٨٤ - ٢) .

تلك كانت بداية التطور في هذه الظاهرة حينئذ . قد ظل هذا التطور سائراً على ألسنة العامة ، وفي لهجات الخطاب ، شيئاً

(١) في المخصص لابن سيده ١ / ١٤ : « ومعنى قولنا : (مطاوعة) أن المفعول به لم يمنع ما رامه الفاعل ، ألا ترى أنك تقول فيما امتنع ما رامته : دفعته فلم يندفع ، وكسرتَه فلم ينكسر ، أي أوردت أسباب الكسر ما به فلم يظفر . »

فشيئاً ، حتى سكادت صيغة المبني للمجهول الأصلية ، تندثر في كثير من اللهجات العربية الحديثة ، وينوب عنها في الدلالة على الجهل بالفاعل ، صيغة : « انفعل » ؛ إذ يقول العامة في مصر مثلاً : « فلان انضرب علقمة سخنة ، وعيط لما انفلق م العياط » ؟

وما حدث في هذه اللهجات الحديثة ، حدث مثله تماماً في اللغة العربية القديمة ؛ إذا أصبح المبني للمجهول فيها من الثلاثي على وزن :

بِنِيعَالِ *nif'al* الذي يقابل صيغة « انفعل » في العربية ، وضاعت منها الصيغة الأصلية للمبني للمجهول كذلك ،

* * *

أما السبب الثالث من أسباب الشذوذ في اللغة ، وهو أن يكون ذلك الشاذ شيئاً مستعاراً من نظام لغوى مجاور ، فقد فطن إليه ابن جني « حين قال : « وما اجتمعت فيه لغتان أو ثلاث ، أكثر من أن يحاط به ، فإذا ورد شيء من ذلك ، كأن يجتمع في لغة رجل واحد لغتان ، فقد يجوز أن تكون لغته في الأصل إحداهما ، ثم إنه استفاد الأخرى من قبيلة أخرى ، وطال بها عهده ، وكثر استعماله لها ، فليحقت لطول المدة ، واتصال استعمالها بلغته الأولى » (١) .

كما يعيب « ابن جني » على اللغويين العرب أنهم « جمعوا أشياء على وجه الشذوذ

عندهم ، وادعوا أنها موضوعة في أصل اللغة على ما سمعوه بأخرة من أصحابها ، وأنسوا ما كان ينبغي أن يذكره ، وأضاعوا ما كان واجباً أن يحفظوه » ، ثم يقول بعد ذلك : « واعلم أن أكثر ذلك وعامته ، إنما هو لغات تداخلت ، فتركبت . هكذا ينبغي أن يعتقد وهو أشبه بحكمة العرب » (٢) .

ومن الأمثلة على ذلك في العربية الفصحى ما نراه فيها من كلمات غير مهموزة في نصوصها ؛ فن المعروف أن الفصحى اتخذت طريق تحقيق الهمز ، وهو الأمر الذي عرفته قبيلة « تميم » كذلك . كما روى لنا أن بعض القبائل العربية ، لم تكن تهز في كلامها ، ومنها قبيلة « قريش » . قال أبو زيد الأنصاري : « أهل الحجاز وهذيل ، وأهل مكة والمدينة لا يهزون ، وقف عليها عيسى بن عمر ، فقال : ما آخذ من قول تميم إلا بالنبر ، وهم أصحاب النبر . وأهل الحجاز إذا اضطروا نبروا » (٣) .

والنبر هو : الهمز ؛ قال ابن منظور : « والنبر : همز الحرف ، ولم تكن قريش تهمز في كلامها . ولما حج المهدي ، قدم الكسائي يصلي بالمدينة ، فهمز فأنكر أهل المدينة عليه ، وقالوا : تنبر في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بالقرآن ؟ » (٤) .

(٢) الخصائص ١/٣٧٤ - ٣٧٥

(٤) لسان العرب (نبر) ٧/٤٠

(١) الخصائص ١/٣٧٢

(٣) مقدمة لسان العرب ١/٤

يحتوى على هذه النون كذلك وهو : إنوش
 وَيُنَاشِئُ وَيُقَابِلُ فِي الْعَرَبِيَّةِ كَلِمَةٌ :
 «إنس» .

* * *

ومن أمثلة هذه الظاهرة كذلك : الفعل
 « يرى » فهو مضارع : « رأى » وعينه
 همزة - كما ترى - غير أن العربية الفصحى ،
 التي آثرت تحقيق الهمز في نطقها ، هي
 التي استعارت هذا النطق الخالي من الهمز ،
 من قريش ومن جرى مجراها من القبائل
 المجاورة . ومثل ذلك تماماً نراء في فعلى الأمر :
 « مر » و « سل » في الابتداء فقط . وماضى
 هذه الأفعال الأربعة مهموز - كما تعرف -
 وهو : « أكل » و « أخذ » و « أمر »
 و « سأل » .

وكذلك كلمة : « النبي » ، تستعملها
 الفصحى بلا همز ، مع أن فعلها هو :
 « تنبأ » . وإذا كانت العربية الفصحى تهتمز
 الكلمات : « أرجأ » و « الكف » و « برأ »
 و « ذرأ » ، فإن « مرجون » في قوله تعالى :
 « وآخرون مرجون لأمر الله » (التوبة ٩/١٠٦)
 لا تكون حينئذ إلا استعارة من نظام لغوى
 مجاور ، مثلها في ذلك مثل : « أرجه » في
 قوله عز وجل : « قالوا أرجه وأخاه »
 (الأعراف ٧/١١١ والشعراء ٢٦/٣٦) ،

كما يقول الإمام الرضى : « اعلم أن
 الهمزة ، لما كانت أدخل الحروف في الخلق
 ولها نبرة كريمة ، تجرى مجرى التهوع ،
 ثقلت بذلك على لسان المتلفظ بها ، فخففها
 قوم - وهم أكثر أهل الحجاز ، ولا سيما
 قريش ؛ روى عن أمير المؤمنين على رضى
 الله تعالى عنه : نزل القرآن بلسان قريش ،
 وليسوا بأصحاب نبر ، ولولا أن جبريل
 عليه السلام ، نزل بالهمز على النبي صلى الله
 عليه وسلم ، ما همزنا - وحققتها غيرهم
 والتحقيق هو الأصل كسائر الحروف ،
 والتخفيف استحسان » (١) .

ومع ذلك كله ، فإننا نرى في الفصحى
 أمثلة غير مهموزة ، وحقها الهمز ،
 ولا تفسير لها إلا بذلك المبدأ ، وهو الاستعارة
 من نظام لغوى مجاور . ومن أمثلة ذلك
 كلمة « ناس » ؛ فإن الأصل فيها هو كلمة :
 « أناس » المستعملة في الفصحى كذلك (٢) .
 والدليل على أن الهمزة أصلية في الكلمة ،
 وجودها في بعض اللغات السامية كالعبرية ؛
 فهي فيها : أناشيم

وهو فيها جمع مفرده : ليش - ليش
 بمعنى : « رجل » ، والياء فيه بدل من
 النون ، بدليل وجودها في الجمع ، كما أن
 هناك مفرداً نادراً الاستعمال في العبرية ،

(١) شرح الشافية ٣/٣١

(٢) يشيع سقوط الهمزة فيها مع أداة التعريف ، ويندر في غير ذلك . انظر الخصائص ٣ / ١٥٠ وانظر أيضا :

Mölcke, Zur Grammatik, S. 16

و « كفوواً » في قوله سبحانه : « ولم يكن له كفواً أحد » (الإخلاص ٤/١١٢) ، و « البرية » في قوله جل شأنه : « إن الدين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها ، أولئك هم شر البرية » (البينة ٦/٩٨) ، و « ذرية » في قوله عز اسمه : « هنالك دعا زكريا ربه ، قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء » (آل عمران ٣/٣٨) . وكذلك الحال في كلمة « الله » التي يقول فيها سيديوه : « وكان الاسم — والله أعلم — إله ، فلما أدخل فيه الألف واللام ، حذفوا الألف ، وصارت الألف واللام خلفاً منها »^(١) .

* * *

وإذا كانت حركة الضم في ضمير النصب والجر للغائب المفرد المذكور ، تتأثر بما قبلها من كسرة طويلة أو قصيرة أو ياء ، فتقلب الضمة كسرة^(٢) ، في العربية الفصحى ، فيقال مثلاً : « ضربته » و « عليه » بدلا من : « ضربته » و « عليه » ، فإن القرآن الكريم وهو الممثل الأعلى لهذه العربية ، قد جاءت به بعض الأمثلة ، التي لم يحدث فيها مثل هذا الأثر الصوتي ، وهي قوله تعالى : « وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكـره »

(الكهف ٦٣/١٨) وقوله عز وجل : « ومن أوفى بما عاهد عليه الله » (الفتح ١٠/٤٨) ، وقد انتقل إليها ذلك من اللغة الحجازية ، التي حافظت على الأصل في حركة هذا الضمير يقول سيديوه : « فالهاء تكسر إذا كان قبلها ياء أو كسرة . . . وذلك قولك : مررت بهي قبل ، ولديهي مال ، ومررت بدارهي قبل ، وأهل الحجاز يقولون : مررت بهو قبل ، ولديهو مال ويقرعون : فخشفنا بهو وبدارهو الأرض »^(٣) ، كما يقول المبرد « فأما أهل الحجاز خاصة ، فعلى الأمر الأول فيها ، يقرعون : فخشفنا بهو وبدارهو الأرض ومن لزم اللغة الحجازية قال : عليه مال »^(٤)

* * *

وهذا مثال أخير لظاهرة الشذوذ ، عن طريق انتقال اللغة ، فمن خصائص اللغة الحجازية ، فك الإدغام في الأفعال المضارعة المحزومة بالسكون ، والأمر المأخوذ منها . وقد جرى القرآن الكريم على لغتهم إلا في أمثلة قليلة ، جاءت بالإدغام على لغة بني تميم . وقد فطن إلى ذلك قدامى اللغويين

(١) كتاب سيديوه ٣٠٩/١ وانظر الخصائص ١٥٠/٣

(٢) انظر : التطور اللغوي وقوانينه ١١٥

(٣) (٤) المقتضب ٣٧/١

(٣) كتاب سيديوه ٢٩٤/٢

العرب ؛ قال الزجاج : « وأهل الحجاز
يظهرون التضعيف . وهذه الآية : (إن
تمسسكم حسنة تسؤهم ، وإن تصبكم سيئة
يفرحوا بها ، وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم
كيدهم شيئاً) ، فيها اللغتان جميعاً ، فقوله
تعالى : (إن يمسسكم) على لغة أهل الحجاز ،
وقوله : (لا يضركم) على لغة غيرهم من
العرب » (١) . كما قال الزركشي (٢) : « أنزل
الله القرآن بلغة الحجازيين إلا قليلاً فإنه
نزل بلغة التميميين ، فمن القليل إدغام :
« ومن يشاقق الله فإن الله شديد العقاب »

(الحشر ٥٩/٤) فإن الإدغام في المجزوم
والاسم المضاعف لغة تميم ، ولهذا قل .
والفك لغة أهل الحجاز ، ولهذا كثر ، نحو :
« ومن يرتدد منكم عن دينه » (البقرة ٢١٧/٢)
و « فليملل وليه بالعدل » (البقرة ٢٨٢/٢)
و « فاتبعوني يحببكم الله » (آل عمران ٣١/٣)
و « من يشاقق الله ورسوله » (الأنفال ١٣/٨)
و « احلل عقدة من لساني يفقهوا قولي »
(طه ٢٧/٢٠) وغير ذلك كثير .
والله أعلم :

الدكتور رمضان عبد التواب
الخبير بالمجمع



(٢) البرهان ٢٨٥/١

(١) معاني القرآن للزجاج ٤٧٦/١

مصادر البحث

المصادر العربية :

- ١ - أحيقار ، حكيم من الشرق الأدنى القديم ، لأنيس فريجة - بيروت ١٩٦٢ م .
- ٢ - الأشباه والنظائر في النحو ، للسيوطي - حيدر آباد بالهند ١٣٥٩ هـ .
- ٣ - إصلاح المنطق ، لابن السكيت - تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون - القاهرة ١٩٥٦ م .
- ٤ - إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ، لابن خالويه - القاهرة ١٩٤١ م .
- ٥ - الاقتراح في علم أصول النحو ، للسيوطي - حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٥٩ هـ .
- ٦ - الأمالي ، لابن الشجري ، حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٤٩ هـ .
- ٧ - الأمثال ، لأبي عكرمة الضبي - تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب - دمشق ١٩٧٤ م .
- ٨ - الأمثال ، لأبي فيدمؤرج السدوسي - تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب - القاهرة ١٩٧١ م .
- ٩ - البرهان في علوم القرآن ، للزركشي - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - القاهرة ١٩٥٧ - ١٩٥٨ م .
- ١٠ - التطور اللغوي وقوانينه ، للدكتور رمضان عبد التواب - مجلة كلية اللغة العربية بالرياض ١٩٧٥ م .
- ١١ - تفسير القرطبي = الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي - القاهرة ١٩٦٧ م .
- ١٢ - التمام في تفسير أشعار هذيل ، لابن جنى - تحقيق أحمد ناجي القيسي وآخرين - بغداد ١٩٦٢ م .
- ١٣ - التيسير في القراءات السبع ، لأبي عمرو الداني - استانبول ١٩٣٠ م .
- ١٤ - الجنى الداني في حروف المعاني ، للدرادى - تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة - حلب ١٩٧٣ م .
- ١٥ - خزانة الأدب ، لعبد القادر البغدادي - بولاق ١٢٩٩ هـ .
- ١٦ - الخصاص ، لابن جنى - تحقيق محمد علي النجار - القاهرة ١٩٥٢ - ١٩٥٦ م .
- ١٧ - الدرر اللوامع على همع الهوامع ، لأحمد بن الأمين الشنقيطي - القاهرة ١٣٢٨ هـ .
- ١٨ - ديوان الأخطل - نشر أنطون صالحاني - بيروت ١٨٩١ م .
- ١٩ - ديوان أمية بن أبي الصلت - تحقيق شولتهس - ليزنج ١٩١١ م .

- ٢٠ - ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات - تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم - بيروت ١٩٥٨ م .
- ٢١ - ديوان العجاج والزفان - نشر أهلوت - برلين ١٩٠٣ م .
- ٢٢ - ديوان عروة بن الورد ، بشرح ابن السكيت - تحقيق عبد المعين الملوحي - دمشق ١٩٦٦ م
- ٢٣ - ديوان الفرزدق - نشر عبد الله إسماعيل الصاوي - القاهرة ١٩٣٦ م .
- ٢٤ - ديران القطامي - تحقيق بارت - ليدن ١٩٠٢ م .
- ٢٥ - ديوان ليلي الأخيالية - جمع وتحقيق خليل وجيليل إبراهيم العطية - بغداد ١٩٦٧ م .
- ٢٦ - ديوان المتنبي - وضع عبد الرحمن البرقوقي - القاهرة ١٩٣٨ م .
- ٢٧ - ديوان مجنون ليلي - تحقيق عبد الستار فراج - القاهرة (بدون تاريخ) .
- ٢٨ - رسالة الغفران ، لأبي العلاء المعري - تحقيق الدكتورة بنت الشاطيء - القاهرة ١٩٦٣ م .
- ٢٩ - سر صناعة الإعراب ، لابن جنى - تحقيق مصطفى السقا وآخرين - القاهرة ١٩٥٤ م .
- ٣٠ - شرح أشعار الهذليين ، للسكري - تحقيق عبد الستار فراج - القاهرة ١٩٦٥ م .
- ٣١ - شرح التصريح ، للشيخ خالد الأزهرى - القاهرة ١٣٢٥ هـ .
- ٣٢ - شرح ديوان أبي تمام ، للتبريزي - تحقيق محمد عبده عزام - القاهرة ١٩٥١ وما بعدها .
- ٣٣ - شرح شافية ابن الحاجب ، للأستاذ اباذى - تحقيق محمد الزفزاف وآخرين - القاهرة ١٣٥٦ هـ .
- ٣٤ - شرح شواهد الشافية ، لعبد القادر البغدادي - تحقيق محمد الزفزاف وآخرين - القاهرة ١٣٥٦ هـ .
- ٣٥ - شرح شواهد المغنى ، للسيوطي - بتصحيح الشنقيطي - القاهرة ١٣٢٢ هـ .
- ٣٦ - شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك - تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد - القاهرة ١٩٤٥ م .
- ٣٧ - شرح مراح الأرواح ، لديكنقوز - القاهرة ١٩٣٧ م .
- ٣٨ - شرح الملوكي في التصريف ، لابن يعيش - تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة - حلب ١٩٧٣ م .
- ٣٩ - شرح ابن يعيش للمفصل - القاهرة (بدون تاريخ) .
- ٤٠ - الصاهل والشاحج ، لأبي العلاء المعري - تحقيق الدكتورة بنت الشاطيء - القاهرة ١٩٧٥ م .

- ٤١- الصناعتين ، لأبي هلال العسكري - تحقيق على البجاوى ومحمد أبو الفضل إبراهيم - القاهرة ١٩٥٢ م .
- ٤٢- طبقات فحول الشعراء ، لابن سلام - تحقيق الشيخ محمود شاكر - القاهرة ١٩٧٤ م .
- ٤٣- العيني = شرح الشواهد الكبرى - على هامش خزانة الأدب للبغدادى - بولاق ١٢٩٩ هـ .
- ٤٤- فقه اللغات السامية ، لكارل بروكلمان - ترجمة الدكتور رمضان عبد التواب - الرياض ١٩٧٧ م .
- ٤٥- الكامل فى اللغة والأدب ، للمبرد - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاته - القاهرة ١٩٥٦ م .
- ٤٦- الكتاب ، لسيبويه - بولاق ١٣١٦ - ١٣١٧ هـ .
- ٤٧- كراهة توالى الأمثال فى أبذية العربية ، للدكتور رمضان عبد التواب - مجلة الجمع العلمى العراق - المجلد الثامن عشر ١٩٦٩ م .
- ٤٨- لسان العرب ، لابن منظور الإفريقى - بولاق ١٣٠٠ - ١٣٠٧ هـ .
- ٤٩- اللغة لقيندريس - ترجمة عبد الحميد الدواخلى ومحمد القصاص - القاهرة ١٩٥٠ م .
- ٥٠- ما يجوز للشاعر فى الضرورة ، للقرزاز القيروانى - تحقيق المنجى الكعبى - تونس ١٩٧١ م .
- ٥١- مجالس نعلب - تحقيق عبد السلام هارون - القاهرة ١٩٦٠ م .
- ٥٢- المخصص فى اللغة ، لابن سيده الأندلسى - بولاق ١٣١٦ - ١٣٢١ هـ .
- ٥٣- المرئجل شرح الحمل ، لابن الحشاش - تحقيق على حيدو - دمشق ١٩٧٢ م .
- ٥٤- المزهر ، للسيوطى - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرين - القاهرة ١٩٥٨ م .
- ٥٥- المستقصى فى أمثال العرب ، للزنجشبرى - حيدر آباد الدكن بالهند ١٩٦٢ م .
- ٥٦- معانى القرآن وإعرابه ، للزجاج - تحقيق عبد الحليل عبده شلبى - بيروت ١٩٧٢ م .
- ٥٧- معانى القرآن ، للفراء - تحقيق الشيخ محمد على النجار - القاهرة ١٩٥٥ م وما بعدها .
- ٥٨- معنى اللبيب ، لابن هشام - تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد - القاهرة (بدون تاريخ) .
- ٥٩- المقتضب ، لأبي العباس المبرد - تحقيق محمد عبد الخالق عزيمة - القاهرة ١٩٦٣ - ١٩٦٨ م .
- ٦٠- المنصف ، لابن جنى ، شرح التصريف للمازنى - تحقيق إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين - القاهرة ١٩٥٤ م .
- ٦١- منبج السالك ، لأبي حيان الأندلسى - تحقيق سيدنى جلازر - واشنطن ١٩٤٧ م .
- ٦٢- همع الهوامع ، شرح جمع الجوامع ، للسيوطى - القاهرة ١٣٢٧ هـ .

المصادر الأفرنجية :

- 1.— C. Brockelmann, Grundriss der vergleichenden Grammatik der semitischen Sprachen, Bd. I-II, Berlin 1908—1913.
- 2.— C. Brockelmann, Syrische Grammatik, Leipzig 1955.
- 3.— A. Dillmann, Grammatik der äthiopischen Sprache, Graz 1959.
- 4.— O. Jespersen, Die Sprache, ihre Natur, Entwicklung und Entstehung, Heildolting 1925.
- 5.— Th. Nöldeke, Zur Grammatik des classischen Arabisch, bearbeitet und mit Zusätzen versehen von Anton Spitaler, Darmstadt 1963.
- 6.— F. Praetorius, Aethiopische Grammatik, New York 1955.

